بسم الله الرحمن الرحيم



التناسب في صحيح الإمام البخاري
(دراسة تأصيلية)

بحث مقدم لمؤتمر الانتصار للصحيحين المنعقد في الفترة من 14– 2010/7/15م
بكلية الشريعة بالجامعة الأردنية

إعداد:
د. علي إبراهيم سعود عجين
جامعة آل البيت
المفرق-المملكة الأردنية الهاشمية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين، وبعد:-

فإن صحيح الإمام البخاري له مكانة خاصة في قلوب المسلمين، لما أبدع فيه مصنفه من إبداعات فاق فيها غيره، فلقد اشترط -رحمه الله- أعلى درجات الصحة لقبول الحديث، واستخرج من الحديث دقائق الأحكام من خلال التراجم التي وضعها لأبواب الصحيح، حتى عد هذا الكتاب خير كتاب بعد كتاب الله تعالى.

وأثناء قراءتي في "الصحيح" كنت ألحظ أن هناك نوعاً من التناسق البديع لاختيارات البخاري في ترتيب الكتاب، سواء ترتيب كتب الصحيح أو ترتيب الأبواب أو الأحاديث.

وكنت أتساءل هل ذلك الترتيب البديع كان يقوم به الإمام البخاري وفق منهجيه واضحة، وما هي علة هذا الترتيب؟!

ومن هنا جاءت هذه الدراسة بعنوان "التناسب في صحيح الإمام البخاري -دراسة تأصيلية".

مشكلة البحث

تحاول الدراسة أن تجيب على التساؤل الآتي:

هل الترتيب في صحيح الإمام البخاري للكتب والأبواب والأحاديث والتراجم كان يسير على منهجية واضحة تظهر التناسب فيما بينها؟ وهل هناك أنواع للتناسب؟ وما أثر الكشف عن هذه الظاهرة في صحيح الإمام البخاري؟

أهداف الدراسة

محاولة الكشف عن التناسب في صحيح الإمام البخاري، وإبراز عبقرية الإمام البخاري في هذا الجانب.

منهج الدراسة

قام الباحث باستقراء المواضع التي بين فيها العلماء التناسب في صحيح الإمام البخاري، ثم قام بتصنيف التناسب إلى أنواع بحسب موضعه من الصحيح في الكتب والأبواب والأحاديث والتراجم.

الدراسات السابقة

ألف العلماء عدداً من المصنفات في بيان التناسب بين التراجم الخفية والأحاديث لبيان العلاقة بينها، ومنها على سبيل المثال "مناسبات تراجم البخاري" للإمام بدر الدين بن جماعة (733هـ)، كما ذكر شراح الصحيح أنواعاً من التناسب أثناء شروحهم، كما لخص الحافظ ابن حجر ما كتبه شيخه الإمام سراج الدين البلقيني عن التناسب بين كتب الصحيح.

إلا أنه لم يظهر للباحث دراسة تبين مفهوم التناسب في صحيح البخاري وتجمع شتى أنواعه.

مخطط البحث

تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: مفهوم التناسب

وفيه مطلبان: **الأول:** التناسب لغة

الثاني: التناسب اصطلاحاً

المبحث الثاني: دراسة التناسب في صحيح البخاري: وسائله وغاياته

وفيه مطلبان: **الأول:** وسائل الكشف عن التناسب في صحيح البخاري

الثاني: غاية الكشف عن التناسب في صحيح البخاري

المبحث الثالث: أنواع التناسب في صحيح الإمام البخاري

وفيه سبعة مطالب:

الأول: التناسب في ترتيب كتب الصحيح

الثاني: التناسب بين التراجم والأحاديث

الثالث: التناسب بين أحاديث الباب الواحد

الرابع: التناسب يبن الأبواب في الكتاب الواحد

الخامس: التناسب في اختيار الحديث الخاتم لكل كتاب (براعة الاختتام)

السادس: التناسب بين الحديث الأخير في الباب والكتاب الذي يليه

السابع: التناسب في اختيار الحديث الأول من الصحيح والحديث الأخير منه، ووجه العلاقة بينهما

الخاتمة: النتائج والتوصيات

أسأل الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة وسيلة للكشف عن مزايا هذا الكتاب العظيم وإظهاراً لعبقرية مصنفه الكريم، في زمن استعرت فيه الهجمة على سنة النبي –صلى الله عليه وسلم–، لهدم صرحها الشامخ "صحيح الإمام البخاري" ولا أرى أن أصحاب هذه الهجمة يردعهم عن باطلهم أو يظهر زيف آرائهم إلا بإبراز أسرار هذا الكتاب وإخراج كنوزه للأمة، بدلاً من الانشغال بالرد والدفاع ووضع هذا السفر العظيم في قفص الاتهام، فلقد أجمعت الأمة على أنه خير كتاب بعد كتاب الله تعالى.

د. علي إبراهيم عجين

وكتبه مساء الثلاثاء جمادى الأولى 1431هـ

2010/5/4 في بيرين الخضراء

ملخص البحث

"التناسب في صحيح الإمام البخاري"

(دراسة تأصيلية)

د. علي إبراهيم عجين – جامعة آل البيت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:–

فهذه دراسة حول "التناسب" في صحيح الإمام البخاري، ونعني به (معرفة علل ترتيب صحيح البخاري، في كتبه وأبوابه وتراجمه وأحاديثه).

حيث بين الباحث أن الإمام البخاري رتب كتابه على نسق بديع وترتيب دقيق، سواء في ترتيب كتب الصحيح أو ترتيب الأبواب في كل كتاب، أو ترتيب الأحاديث في الباب الواحد. كما أنه أبدع في "براعة الاختتام" باختيار الحديث المناسب في خاتمة كل كتاب، إلى غير ذلك من أنواع التناسب.

وبين الباحث وسائل الكشف عن التناسب من خلال الاستقراء والتأمل والاجتهاد، كما أظهر أثر دراسة "التناسب" في صحيح البخاري، ولا سيما في إظهار عبقريته في ترتيب كتابه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المبحث الأول: مفهوم التناسب

المطلب الأول: التناسب لغة

من النسب، قال ابن فارس: (النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء)[1]، ومنه النسب سمي لاتصاله به، والنسيب: الطريق المستقيم لاتصال بعضه ببعض [2]، والمناسبة: المشاكلة، تقول: ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة[3].

والمناسبة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط يبنهما، وهو القرابة[4].

المطلب الثاني: التناسب اصطلاحاً

يستعمل مصطلح "التناسب" و"المناسبة" في علم تفسير القرآن لبيان الترابط بين آيات القرآن الكريم وسوره، ومن أشهر من صنف في ذلك الإمام برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (885هـ) في تفسير "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ولقد عرف علم المناسبات في القرآن الكريم بقوله: (مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه) [5].

وعرفه د. محمد بازمول: (معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض) [6].

ومن هنا يتبين الترابط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، إذ لا تتم المشاكلة إلا بوجود أمر يربط بين الشيئين أو يقارب بينهما[7].

وإذا علمنا أن كتب رواية الحديث الشريف المرتبة موضوعياً تقسم –عادة– إلى كتب وأبواب وتراجم وأحاديث، وكل كتاب يحوي عدداً من الأبواب، والأبواب توضع لها العناوين –أي

([1]) ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، معجم مقاييس اللغة، (5/524–426)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ–1991م.

([2]) المصدر السابق.

([3]) انظر: ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب (2/253)، الدار المصرية للتأليف والنشر–القاهرة، دون سنة الطبع، والجوهري: إسماعيل بن حماد الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور (1/224)، دار العلم للملايين–بيروت، الطبعة الرابعة 1990م.

([4]) انظر: الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ)، البرهان في علوم القرآن (1/35)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة–بيروت، الطبعة الثانية 1391هـ–1972م.

([5]) البقاعي: أبو الحسن إبراهيم بن عمر (885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (1/5)، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ–1995م.

([6]) علم المناسبات في السور والآيات، ص27، المكتبة المكية.

([7]) انظر: مشاهرة: مشهور موسى مشاهرة: التناسب القرآني عند الإمام البقاعي–دراسة بلاغية، ص 53، إصدار الجامعة الأردنية، 2001م.

التراجم-، ويضم الباب عدداً من الأحاديث، فيمكننا القول إن التناسب في صحيح البخاري: **(معرفة علل ترتيب صحيح البخاري، في كتبه وأبوابه وتراجمه وأحاديثه).**

وهذا يقودنا إلى أنواع من التناسب في صحيح البخاري، كالتناسب في ترتيب كتب الصحيح، والتناسب بين أبواب كل كتاب، والتناسب بين التراجم والأحاديث، ونحوها من أنواع التناسب[1].

المبحث الثاني

دراسة التناسب في صحيح البخاري: وسائله وغايته

المطلب الأول: وسائل الكشف عن التناسب في صحيح البخاري

لم يكشف الإمام البخاري عن طريقته في التناسب في كتابه الصحيح، وربما ترك ذلك (لغرض شحذ الأذهان في إظهار مضمره واستخراج خبيئه) [2]. فهو أمر اجتهادي يحتاج إلى استقراء وتأمل للوصول إليه، فتصدى له الأئمة الكبار بنظر عميق واجتهاد دقيق، وهو (قسم عجز عنه الفحول البوازل في الأعصار، والعلماء الأفاضل من الأنصار، فتركوها واعتذروا عنها بأعذار)[3].

ومن خلال النظر في أقوال العلماء عن التناسب في صحيح البخاري، يمكن إجمال وسائل الكشف عن التناسب على النحو الآتي:

أولاً: الاستقراء

فإن الوصول إلى علة الترتيب وبيان التناسب يحتاج إلى تتبع مواضعه في الصحيح وربطها مع بعضها البعض، وإلى ذلك أشار الإمام ابن حجر -رحمه الله- عند حديثه عن التناسب بين ترجمة البخاري: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وحديث "إنما الأعمال بالنيات..."، قال: (وقد صدر الكتاب بترجمة بدء الوحي وبالحديث الدال على مقصوده المشتمل على أن العمل دائر مع النية، فكأنه يقول: قصدت جمع وحي السنة المتلقى عن خير البرية، على وجه سيظهر حسن عملي فيه قصدي، وإنما لكل امرئ ما نوى، فاكتفى بالتلويح عن التصريح، وقد سلك هذه الطريقة في معظم تراجم هذا الكتاب على ما سيظهر بالاستقراء)[4].

([1]) سيأتي الحديث عن أنواع التناسب في صحيح البخاري بمبحث مستقل.

([2]) اقتباساً من ابن حجر: هدي الساري، ص 13-14.

([3]) الكرماني: شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الشافعي (786هـ): شرح الكرماني علي صحيح البخاري (4/1)، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثانية 1401هـ-1981م.

([4]) فتح الباري، (8/1).

ثانياً: التأمل والتفكير

لا طريقة لمعرفة التناسب في الصحيح إلا بإمكان النظر وإعمال الفكر، لأنه أمر خفي، قد يخفى على بعض من لم يمعن النظر، ولكن (من تأمل ظفر ومن جد وجد)[1].

ذكر الحافظ بن حجر -رحمه الله- أن الإمام البخاري- رحمه الله- أورد قول أبي ذر - رضي الله عنه-: (لو وضعتم الصمصامة -أي السيف- على هذه وأشار إلى قفاه- ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها) متناسباً مع الباب الذي قبله: باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم "رب مبلغ أوعى من سامع". ثم قال: (وغالب أبواب هذا الكتاب -أي كتاب العلم- لمن أمعن النظر فيها والتأمل لا يخلو عن ذلك)[2].

ثالثاً: الاجتهاد

بعد الاستقراء والتأمل يأتي اجتهاد العالم في تقرير التناسب، بحسب ما يظهر له من الأدلة والقرائن الدال عليه.

وفي تعدد أقوال العلماء في مناسبة حديث "إنما الأعمال بالنيات..." لباب: كيف كان بدء الوحي، يظهر لنا دور النظر الاجتهادي في تقرير التناسب، فقد أورد الحافظ ابن حجر ما يزيد عن سبعة أقوال للعلماء في هذه المسألة، وبعد إيرادها قال: (ومن الناسبات البديعة الوجيزة ما تقدمت الإشارة إليه، أن الكتاب ما كان موضوعاً لجمع وحي السنة صدره ببدء الوحي، ولما كان الوحي لبيان الأعمال الشرعية صدره بحديث الأعمال) ثم رد على من قال بعدم التناسب قائلاً: (ومع هذه المناسبات لا يليق الجزم بأنه لا تعلق له بالترجمة أصلاً)[3].

المطلب الثاني: غاية الكشف عن التناسب في صحيح البخاري

إذا كان صحيح الإمام البخاري قد تميز عن غيره من الكتب باشتراطه أعلى مراتب الصحة لأحاديثه، ودقة الاستنباط الفقهي في تراجمه، (فهي الجهة العظمى الموجبة لتقديمه، بما ضمن أبوابه من تراجم حيرت الأفكار وأدهشت العقول والأبصار)، فالبخاري -رحمه الله- ساق الفقه في التراجم سياقه المخلص للسنن المحضة عن المزاحم، المستثير لفوائد الأحاديث من مكامنها، المستبين من إشارات ظواهرها مغازي بواطنها، فجمع كتابه العلمين والخيرين الجمين، فحاز كتابه من السنة جلالتها ومن المسائل الفقهية سلالتها، وهذا غوص ساعده عليه التوفيق ومذهب في التحقيق دقيق[4]. فإن ما أبدعه البخاري في صحيحه من تناسق بين كتب الصحيح،

([1]) ابن حجر، هدي الساري، ص 14.

([2]) فتح الباري، (162/1).

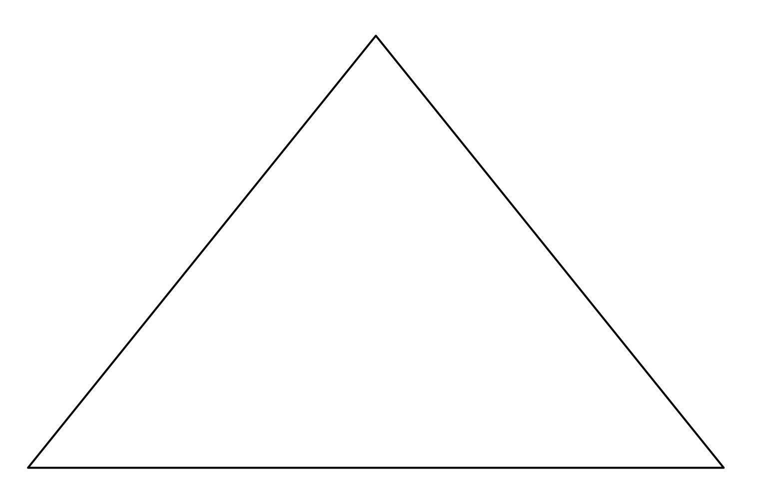
([3]) المصدر السابق، (10/1-11).

([4]) انظر: ابن الميّر: أحمد بن محمد بن منصور الإسكندري (683هـ): المتواري على أبواب البخاري، ص 39-40، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار عمار-عمان، الطبعة الأولى 1411هـ-1990م.

والتناغم بين أبوابه، والمناسبة بين التراجم والأحاديث، ونحوها من أنواع التناسب، مما لا يوجد في غيره، يمثل أساساً آخر لتقديمه على سواه من الكتب المصنفة، حتى أصبح كتابه خير كتاب بعد كتاب الله تعالى.

وإليك ثالوث "عبقرية" الإمام البخاري في صحيحه:

1) اشتراط أعلى مراتب الصحة في الحديث



2) دقة الاستنباط الفكري في التراجم

3) التناسب بين الكتب والأبواب والتراجم والأحاديث

كما أن التناسب يجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، والمتلائم الأجزاء [1]، ويظهر الوحدة الموضوعية المترابطة لكل كتاب من كتب الجامع الصحيح، وسيأتي الحديث عن ذلك تفصيلاً في أنواع التناسب في صحيح البخاري، ولا سيما التناسب بين أبواب الكتاب الواحد في الصحيح.

والتناسب يمثل "الفكر المنظومي" للإمام البخاري، الذي بنى كتابه كمظومة متكاملة مترابطة، يبنى آخرها على أولها، وأولها على آخرها، من أول كتاب، وهو كتاب "بدء الوحي" إلى آخر كتاب وهو كتاب "التوحيد".

المبحث الثالث

(1) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، (36/1).

أنواع التناسب في صحيح البخاري

راعى الإمام البخاري –رحمه الله– في تصنيفه للصحيح التناسب من عدة وجوه ليصل إلى الدرجة العليا والحالة المثلى، فكشف لنا العلماء أنواعاً للتناسب تتمثل بما يأتي:

المطلب الأول: التناسب في ترتيب كتب الصحيح

يعد الترتيب الذي سار عليه الإمام البخاري لكتب الصحيح ترتيباً مبتكراً لم يسبق إليه، ويكفيه ابتداؤه بكتاب "بدء الوحي"، وهو من بديع الاستهلال، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ثم كتاب العلم، وهكذا حتى ختم بكتاب التوحيد. وفي هذا النوع كتب الإمام أبو حفص البلقيني[1]، ولخصه تلميذه –الإمام بن حجر– في هدي الساري[2]، مبيناً تناسب كتب الصحيح مع بعضها البعض، فقال رحمه الله: (وقدمه –أي كتاب بدء الوحي– لأنه منبع الخيرات، وبه قامت الشرائع وجاءت الرسالات، ومنه عرف الإيمان والعلوم، وكان أوله إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بما يقتضي الإيمان...، فذكر بعد كتاب الإيمان والعلوم، وكان الإيمان أشرف العلوم، فعقبه بكتاب العلم، وبعد العلم يكون العمل، وأفضل الأعمال البدنية الصلاة، ولا يتوصل إليها إلا بالطهارة، فقال كتاب الطهارة، فذكر أنواعها وأجناسها،...).

ونظم الإمام البلقيني ذلك نظماً فقال:

أتى في البخاري حكمة في التراجم	مناسبة في الكتب مثل التراجم
فمبدأ وحي الله جاء نبيه	وإيمان يتلوه بعقد المعالم
وإن كتاب العلم يذكر بعده	فبالوحي إيمان وعلم العوالم
وما بعد إعلام سوى العمل الذي	به يرد الإنسان ورد الأكارم
ومبدؤه طهر أتى لصلاتنا	وأبوابه فيها بيان الملائم[3]

ثم ساق الإمام البلقيني جميع كتب الصحيح بحسب ترتيبها مبيناً التناسب بينها، وختمها بقوله:

(ولما كانت الإمامة والحكم يتمناها قوم أردف ذلك بكتاب التمني، ولما كان مدار حكم الحكام في الغالب على أخبار الآحاد، قال ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق، ولما كانت الأحكام كلها

([1]) هو: عمر بن رسلان بن نصير بن صالح السراج أو حفص البلقيني الشافعي، ولد سنة (724هـ) له تصانيف عدة، منها محاسن الاصطلاح، كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث، توفي في القاهرة سنة (805هـ). انظر ترجمته: السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (85/6) دار مكتبة الحياة–بيروت، دون سنة الطبع.

([2]) ص470.

([3]) ذكر هذا النظم، الإمام القسطلاني: شهاب الدين أحمد بن محمد الشافعي (923هـ): إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (62/1–63–64).

تحتاج إلى الكتاب والسنة، قال: الاعتصام بالكتاب والسنة، وذكر أحكام الاستنباط من الكتاب والسنة والاجتهاد وكراهية الاختلاف، وكان أصل العصمة أولاً وآخراً هو توحيد الله، فختم بكتاب التوحيد) [1].

ونظمه بقوله:

وأحكامها خلفاً يزيد تنازعاً	كتاب التمني جاء رمزاً لراقم
ولا تتمنوا جاء فيه تواتراً	وأخبار آحاد حجاج لعالم
كتاب اعتصام فاعتصم بكتابه	وسنة خير الخلق عصمة عاصم
وخاتمة التوحيد طاب ختامها	بمبدئها عطر ومسك لخاتم[2]

المطلب الثاني: التناسب بين التراجم والأحاديث

تنقسم تراجم صحيح البخاري من حيث ظهورها وخفائها إلى قسمين:

الأولى: التراجم الظاهرة: وهي الترجمة التي يدل عليها الحديث دلالة ظاهرة واضحة، بحيث لا تحتاج إلى إعمال الفكر والنظر لمعرفة العلاقة بينها وبين حديث الباب[3].

الثانية: التراجم الخفية (الاستنباطية): وهي العناوين التي يستنبطها المصنف من الحديث الوارد في الباب، بحيث لا يدرك القارئ العلاقة بينها وبين الحديث إلا بإعمال الفكر والنظر والتأمل [4]. وهذا النوع يخفى على من لم يمعن النظر فيعترض على البخاري اعتراض شاب غر على شيخ مجرب أو مكتهل [5]، أو يبقى في حيرة من أمره لا يصل إلى معرفة المناسبة بين الترجمة والحديث.

فاعتنى شراح الصحيح في هذا النوع واجتهدوا في بيان مطابقة الترجمة للحديث، وألف عدد من الأئمة كتباً خاصة في هذا الباب، ومن ذلك:

1. ناصر الدين أحمد بن المنيّر خطيب الإسكندرية (683هـ): جمع أربعمائة ترجمة وتكلم عليها[6]، وهو (المتواري على تراجم البخاري) وهو مطبوع.

([1]) هدي الساري، ص473.

([2]) أرشاد الساري، (63/1).

([3]) انظر: القضاة: د. أمين القضاة ود. عامر صبري، دراسات في مناهج المحدثين، ص 36، جامعة الإمارات العربية المتحدة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، والشمالي: د. ياسر الشمالي، الواضح في مناهج المحدثين، ص 119، دار الحامد للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2003م.

([4]) انظر: القضاة: د. أمين القضاة ود. عامر صبري، دراسات في مناهج المحدثين، ص 39–40، والشمالي: د. ياسر الشمالي، الواضح في مناهج المحدثين، ص127.

([5]) انظر: ابن حجر، هدي الساري، ص13.

([6]) المصدر السابق، ص14، وهو مطبوع بتحقيق الشيخ علي الحلبي، دار عمار–عمان، 1411هـ–1990م.

2. محمد بن منصور بن حمامة السلجماسي المالكي، من علماء المغرب، ألف كتاب (فك أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة) [1]، ولم يكثر من ذلك بل جملة ما في كتابه نحو مائة ترجمة[2].
3. أبو عبد الله بن رُشيد البسبتي (721هـ): ألف كتاب "ترجمان التراجم" وصل فيه إلى كتاب الصيام، قال ابن حجر: (لو تم لكان غاية الإفادة، وإنه لكثير الفائدة مع نقصه)[3]. والذي يظهر أن كتاب ابن رشيد لم يذكر التناسب بين التراجم والأحاديث وحسب، بل وجدت الحافظ ابن حجر ينقل عنه في أنواع أخرى من التناسب، كما سيأتي.
4. الإمام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي (733هـ): ألف كتاب "مناسبات تراجم البخاري"، قال في مقدمته عن البخاري: (وضمن تراجم بعض الأبواب ما يبعد فهمه من حديث ذلك الباب، ووقع ذلك بعض التباس على كثير من الناس، فبعضهم مصوباً له ومتعجباً، من حسن فهمه، وبعض نسبه إلى التقصير في فهمه وعلمه، وهؤلاء ما أنصفوه لأنهم لم يعرفوه، وبعض قال: لم يبيض الكتاب وهو قول مردود) [4]. ثم قال: (وقد استخرت الله تعالى في هذا المختصر، مشيراً إلى ما يمكن من ذكر مناسبة تلك الأحاديث لتلك التراجم، وحكمة استنباطه لأحكام التراجم منها) [5]. ومثاله: ما ترجم به البخاري في كتاب الجهاد: باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم– "نصرت بالرعب مسيرة شهر. وأورد فيه حديث أبي سفيان وحواره مع هرقل حيث وصله كتاب النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعوه إلى الإسلام، وفيه قول أبي سفيان لأصحابه: (لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر)[6].

([1]) انظر: القضاة: د. أمين القضاة: دراسات في مناهج المحدثين، ص 42.

([2]) المصدران السابقان، وانظر الحسني: محمد عصام: إتحاف القارئ بمعرفة جهود العلماء على صحيح البخاري، ص332، اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى 1407هـ–1987م، ولم يذكر فيه سنة وفاة السلجماسي.

([3]) هدي الساري، ص14.

([4]) ابن جماعة: بدر الدين محمد بن إبراهيم (733هـ)، مناسبات تراجم البخاري، ص 25، تحقيق محمد إسحاق السلفي، الدار السلفية–الهند، الطبعة الأولى 1404هـ–1984م.

([5]) المصدر السابق، ص27.

([6]) حديث رقم (2978).

قال الإمام ابن جماعة: (مطابقة حديث أبي سفيان للترجمة قوله: إنه ليخافه ملك بني الأصفر، وكان بالشام، وبين الشام والحجاز مسيرة شهر)[1].

المطلب الثالث: التناسب بين أحاديث الباب الواحد

كان البخاري يرتب الأحاديث في الباب الواحد، بحسب الغرض الذي من أجله يسوق تلك الأحاديث، فتارة يبدأ بالحديث العالي ويتبعه ذكر الحديث النازل، وتارة يبدأ بالحديث المعنعن، ثم يردف به حديثاً آخر فيه التصريح بالسماع، وتارة يبدأ بالحديث الأكثر دلالة على الحكم الفقهي ثم يتبعه بالشواهد وهكذا.. كل ذلك وفق منهج محكم دقيق، كلما نظر الباحث فيه وتحرى ذلك عظم مقدار هذا السفر العظيم في نظره، وارتفعت مكانة صاحبه[2].

ومثال ذلك ما أورده الحافظ ابن حجر في علة ترتيب أحاديث باب: كتابة العلم من كتاب العلم، فقال، فقال –رحمه الله–: (قدم حديث علي –رضي الله عنه– أنه كتب عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويطرقه احتمال أن يكون إنما كتب ذلك بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يبلغه النهي، –وهو حديث سؤال علي –رضي الله عنه– هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب الله... وفيه: وما في هذه الصحيفة... الحديث")–.

قال ابن حجر: (وثنى بحديث أبي هريرة –رضي الله عنه– وفيه الأمر بالكتابة وهو بعد النهي فيكون ناسخاً، –وهو حديث: اكتبوا لأبي فلان–) (وثلّث بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– وقد بينت أن في بعض طرقه إذن النبي –صلى الله عليه وسلم– في ذلك، فهو أقوى في الاستدلال للجواز من الأمر أن يكتبوا لأبي شاة، لاحتمال اختصاص ذلك بمن يكون أمياً أو أعمى) و(ختم بحديث ابن عباس –رضي الله عنه– الدال على أنه –صلى الله عليه وسلم– هم أن يكتب لأمته كتاباً يحصل منه الأمن من الاختلاف، وهو لا يهم إلا بحق)[3].

المطلب الرابع: التناسب يبن الأبواب في الكتاب الواحد

كل باب من أبواب كتب الصحيح، له ارتباط بطريقة ما بالباب الذي يليه وبالباب السابق له، بمنظومة متناسقة لخدمة موضوع الكتاب بأكمله.

ولقد تنبه شراح الصحيح لهذا النوع من التناسب، فحاولوا إبراز ذلك بين الحين والآخر، إلا أن الإمام بدر الدين بن محمود بن أحمد العيني في شرحه "عمدة القاري" التزم بيان هذا التناسب في كتب الصحيح، مع بيانه لنوع التناسب كأن يكون من باب المقابلة أو المماثلة أو للاشتراك في المعنى أو لبيان الحكم أو للاقتران أو السببية.

([1]) ص 88.

([2]) انظر: القضاة وصبري، دراسات في مناهج المحدثين، ص31.

([3]) ابن حجر، فتح الباري، (210/1).

ومن الأمثلة على ذلك:

أورد البخاري في كتاب العلم: باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم.

قال العيني: (وجه المناسبة بين البابين من حيث أن المذكور في الباب الأول هو السؤال والجواب، وهما غالباً لا يخلوان عن التحريض لأنهما تعليم وتعلم ومن شأنهما التحريض) [(1)]. يشير إلى باب من أبواب الفتيا بإشارة اليد والرأس، وفيه أحاديث في سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ذبحت قبل أن أرمي فأومأ بيده قال: ولا حرج.. الحديث". وعند شرح باب: الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله، قال -رحمه الله-: (فإن قلت ما وجه المناسبة بين البابين؟ قلت: من حيث أن المذكور في الباب الأول التحريض على العلم، والمحرض من شدة تحرضه قد يرحل إلى المواضع لطلب العلم ولا سيما لنازلة تنزل به) [(2)]. وعند شرح: باب التناوب في العلم، قال: (وجه لمناسبة بين البابين من حيث أن المذكور في الباب الأول: الرحلة في طلب العلم، وهي لا تكون إلا من شدة الحرص في طلب العلم، وفي التناوب أيضاً هذا المعنى لأنهم لا يتناوبون إلا لطلب العلم والتباعث عليه شدة حرصهم)[(3)].

وهكذا تراه يربط كل باب بما سبقه ليظهر الكتاب كوحدة مترابطة من أوله إلى آخره.

المطلب الخامس: التناسب في اختيار الحديث الخاتم لكل باب (براعة الاختتام)

من بديع التناسب ي الصحيح ما نبه إليه العلماء بـ"براعة الاختتام" بحسن اختيار الإمام البخاري للحديث الأخير في كل كتاب من كتب الصحيح، وتناسق ذلك مع موضوع ذلك الكتاب.

وإليك المثال:

ختم الإمام البخاري كتاب بدء الوحي بقصة هرقل عندما وصله كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعوه للإسلام، وفيه حواره مع أبي سفيان، وجاء في آخر الحديث قول هرقل لعظماء الروم: (يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد أن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم عليّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل).

قال ابن حجر: (لما كان أمر هرقل في الإيمان عند كثير من الناس مستبهماً، لأنه يحتمل أن يكون عدم تصريحه بالإيمان للخوف على نفسه من القتل، ويحتمل أن يكون استمر

([1]) العيني: بدر الدين محمود بن أحمد العيني (855هـ) (99/1)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الفكر-بيروت، دون سنة الطبع.

([2]) المصدر السابق، (100/1).

([3]) المصدر السابق، (103/1).

على الشك حتى مات كافراً، وقال الراوي في آخر القصة: فكان ذلك آخر شأن هرقل. ختم به البخاري هذا الباب الذي استفتحه بحديث الأعمال بالنيات، كأنه قال إن صدقت نيته انتفع بها بالجملة، وإلا فقد خاب وخسر.

فظهرت مناسبة إيراد قصة ابن الناطور في بدء الوحي لمناسبتها فحديث الأعمال المصدر الباب به، ويؤخذ للمصنف من آخر لفظ في القصة، براعة الاختتام –أي قوله: آخر شأن هرقل–)[1].

مثال آخر:

ختم الإمام البخاري كتاب الوضوء بباب: فضل من بات على الوضوء، وأورد فيه حديث البراء بن عازب –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة... الحديث، وفيه: واجعلهن آخر ما تتكلم به".

قال ابن حجر –رحمه الله–: (النكتة في ختم البخاري كتاب الوضوء بهذا الحديث من جهة أنه آخر وضوء أمر به المكلف في اليقظة، ولقوله في نفس الحديث: "واجعلهن آخر ما تقول" فأشعر بذلك بختم الكتاب")[2].

ولقد اعتنى الإمام ابن حجر في هذا النوع من المناسبات وبين أنه لم ير من نبه عليه، فقال: (ومما اتفق له من المناسبات التي لم أر من نبه عليها أنه يعتني غالباً بان يكون الحديث الأخير من كل كتاب من كتب هذا الجامع مناسبة لختمه ولو كانت الكلمة في أثناء الحديث الأخير أو من الكلام عليه) [3] ثم ساق الأمثلة المذكورة سابقاً وزاد عليها إلى آخر كتاب التوحيد.

المطلب السادس: التناسب بين الحديث الأخير في الباب والكتاب الذي يليه

يتفرع عن النوع الخامس من التناسب "براعة الاختتام" نوع آخر، وهو التناسب بين الحديث الأخير في الباب مع الكتاب الذي يليه.

ومن ذلك: أن البخاري ختم كتاب الإيمان بباب النصيحة وفيه حديث جرير بن عبد الله –رضي الله عنه– في مبايعته للنبي –صلى الله عليه وسلم– "والنصح لكل مسلم" مشيرا إلى أنه عمل بمقتضاه في الإرشاد إلى العمل بالحديث الصحيح دون السقيم، ثم عقبه بكتاب العلم لما دل عليه حديث النصيحة أن معظمها يقع بالتعلم والتعليم[4].

([1]) فتح الباري، (44/1).

([2]) فتح الباري، (358/1).

([3]) فتح الباري، (543/13).

([4]) انظر: ابن حجر: أحمد بن علي: فتح الباري، (140/1).

المطلب السابع: التناسب في اختيار الحديث الأول من الصحيح والحديث الأخير منه، ووجه العلاقة بينهما

قال الإمام العيني: (بيان اختياره هذه البداية –أي حديث أنما الأعمال بالنيات– أراد بهذا إخلاص القصد وتصحيح النية وأشار به إلى أنه قصد بتأليفه الصحيح وجه الله تعالى، وقد حصل له ذلك، حيث أعطي هذا الكتاب من الحظ ما لم يعط غيره من كتب الإسلام، وقبله أهل المشرق والمغرب)[1].

وختم البخاري كتابه بحديث أبي هريرة –رضي الله عنه– "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان –سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" في باب قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ من كتاب التوحيد. قال ابن حجر: (والذي يظهر أنه قصد ختم كتابه بما دل على وزن الأعمال لأنه آخر آثار التكليف فإنه ليس بعد الوزن إلا الاستقرار في أحد الدارين)[2]، وذكر فيه التسبيح والتحميد ليكونا آخر الكلام[3].

ولما كان أصل العصمة أولاً وآخراً هو توحيد الله، فختم بكتاب التوحيد، وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر ثقل الموازين وخفتها فجعله آخر تراجم الكتاب، فبدأ بحديث "الأعمال بالنيات" وذلك في الدنيا، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ما كان بالنية الخالصة[4].

وهاتان الكلمتان معناهما جاء في ختام دعاء أهل الجنة لقوله تعالى ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[5].

([1]) عمدة القاري، (22/1).

([2]) فتح الباري، (542/13).

([3]) انظر المصدر السابق.

([4]) نقله الحافظ ابن حجر عن شيخه سراج الدين البلقيني، انظر فتح الباري، (542/13).

([5]) نقله الحافظ ابن حجر عن شيخه البلقيني: انظر هدي الساري، ص473.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:-

فقد توصل الباحث بعد هذه الدراسة إلى النتائج والتوصيات الآتية:-

أولاً: النتائج

1. تتجلى ظاهرة التناسب في صحيح الإمام البخاري بشكل جلي سواء في الترابط بين ترتيب كتب الصحيح، وفي ترتيب الأحاديث داخل الباب الواحد، وفي التناسق بين الأبواب في الكتاب الواحد، والتناسب بين التراجم الخفية والأحاديث وغيرها من أنواع التناسب.
2. إن عبقرية الإمام البخاري لا تكمن باشتراطه الصحة في كتابه، ودقيق استنباطه في تراجم الكتاب فحسب، بل وتظهر من خلال ما أبدعه من أنواع التناسب في كتابه.

ثانياً: التوصيات

يوصي الباحث الدارسين لمنهج الإمام البخاري في صحيحه التوسع في دراسة ظاهرة التناسب في الصحيح ومحاولة الكشف عن أنواع أخرى من التناسبات فيه.

تمّ بحمد الله